

مظاهر النفوذ الاستعماري الأوربي في مقاطعات الشرق الإفريقي النشاط التبشيري في القرن التاسع عشر الميلادي

الدكتور أشرف صالح
جمهورية مصر العربية

مقدمة:

لم تتعرف أفريقيا على عقيدة النصارى قبل السنوات الأخيرة التي شهدت نهاية الإمبراطورية الرومانية في شمال أفريقيا على يد المسلمين، ومع أول عهد انتشار الإسلام في هذه المنطقة، لم يكن للنصارى غير مملكة قبطية في بلاد النوبة شمال أم درمان بالسودان كانت تسمى (مملكة ميروي) رفضت دعوة التوحيد، وظلت على شركها في ظل الدولة الإسلامية حتى سنة 1405، عندما هاجمتها قبائل الفونج الوثنية، لتعود أفريقيا مرة أخرى بين وثنية تجذرت بجهالاتها وبين عقيدة إسلامية تنتشر كنسماوات الربيع.

كانت أفريقيا بالنسبة للنصارى عندما هجموا عليها كقطعة لحم جافة تتسابق إليها الكلاب لنتهش منها ما يسد نهما، لم تكن الغاية هي المسيح، إنما كانت توسيع رقعة النفوذ في مواجهة الصراعات السياسية والعقدية التي سيطرت على كل أنحاء أوربا، إلى أن بدأت سياسة احتلال البلاد في أفريقية وأسيا، ونهب ثرواتها واستعباد شعوبها فيما يعرف بالحملات الاستكشافية أولاً، ثم الحملات الصليبية بعد ذلك.⁽¹⁾

تحت ظل هذه الحملة تحركت الكنيسة الكاثوليكية من فرنسا ثم من بلجيكا والبرتغال وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، كما تحركت الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية من إنجلترا ثم من فرنسا وسويسرا وألمانيا واسكندنافيا وأمريكا

جاعلة لنفسها مقرًا دوليًا في منطقة جنوب إفريقية.⁽²⁾ ومن أشهر طوائف البروتستانتية الذين نشطوا في قارة إفريقية عمومًا هم الانجليكان، والميثودست، والبريتاريان، ثم اللوثرية، وجمعيات البابتست (Baptistes) والأدفنتست (Adventistes)، وبرج المراقبة (Watch Tower)، والمعروفة بجماعة "شهود بَهوَّة" وهي الجماعة الوحيدة التي حالت الكنائس البلجيكية وحكوماتها دون السماح لها بالدعوة في منطقة الكونغو، وقد أدت هذه التعددية غير المحدودة من مذاهب وملل واعتقادات النصراري التي هرعَت إلى الأرض الجديدة إلى إثارة الفتن والعصبية وإشعال الحروب الضاربة بين قبائل الأفريقيين على مستويين:⁽¹⁾

- أولاً: في الداخل بين مَنْ ترك الوثنية إلى النصرانية أو اعتنق مذهباً نصرانياً يخالف مذهب الآخر، لا داخل القبيلة فحسب، إنما داخل الأسرة الواحدة وداخل العشيرة الواحدة بين الأب وأبناءه، وبين الأشقاء وبين الزوج وأصهاره.

- ثانياً: في الخارج بين القبائل بعضها مع بعض لارتداد بعضها عن الوثنية أو لاختلاف المذاهب والملل التي اعتنقوها محدداً من النصرانية، وهكذا سالت دماء المئات والألوف من أبناء افريقية بأيديهم ثمن هذه الفتنة، إلى أن لجأت كل الإرساليات النصرانية إلى أسلوب جديد يحافظ على الطقوس والعادات الوثنية التي تربط بعض القبائل ببعضها والإبقاء عليها، إلى جانب طقوس النصرانية وعباداتها، وإن اختلف ذلك عن أصولهم العقدية، وهو ما صنعوه بالنسبة للنصراني الزنجي الجديد بكلمتي (الموت الذاتي) أو (الاحتضار المعنوي) للدلالة على خطورة ذلك الانقلاب في حياة الرجل الأفريقي.⁽²⁾ ولكن على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت، والأموال الطائلة التي أنفقت وعشرات الأرواح التي أزهقت بين المنصرين، بسبب

الأمراض التي كانت تنتشر في البلاد الأفريقية، فإن حصاد النصرانية كان شيئاً لا يذكر، ولا تتناسب مع الجهود والأموال والتضحيات التي خسرتها الكنائس وإرسالياتها، حتى نهاية القرن التاسع عشر ومثلما فعل نصارى البرتغال وهولندا وفرنسا، حاولت الكنيسة الألمانية أن تحقق شيئاً في مواجهة المد الإسلامي بأفريقية فاختارت العمل بين قبائل تعرف بالهوتنتون ولكنها لم تحقق أي نجاح.

النشاط التبشيري:

استأثر الجهد التبشيري عدة مناطق من بينها منطقة تنجانيقا (تنزانيا حالياً)، وكينيا، وأوغندا، ورواندا،⁽³⁾ وقد تغلغل المبشرون الأوروبيون في مقاطعات الشرق الإفريقي منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ونجحوا في تأسيس عدة مراكز تبشيرية في الداخل.⁽⁴⁾

ومن أولئك المبشرين يمكن أن نذكر كرايف (Krapf) وريبمان (Rebman)،⁽⁵⁾ الذين استقروا في بعض المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار يبشران بالمسيحية، ومن المهم أن نذكر أن كثيراً من المبشرين والمستكشفين لاقوا كثيراً من عناية ورعاية حكام السلطنة العربية، فقد ذكر كرايف في الكتاب الذي وضعه عن شرق أفريقيا مقدار ما منحه له السيد سعيد من تسهيلات ومعونات، وكيف كان يستعين بنفوذه في التوغل في مقاطعات الشرق الإفريقي، وفي مباشرة نشاطه التبشيري حيث أمده السيد سعيد بخطابات توصية للرؤساء التابعين له يطلب فيها منهم أن يعاملوا كرايف أحسن معاملة لأنه رجل يعمل على تمويل الوثنيين إلى معرفة الله، وعلى ذلك ينبغي أن يقدموا له كل ما يحتاج إليه من مساعدة،⁽¹⁾ وقد أقام كرايف عدة أشهر في زنجبار، ثم قام بعد ذلك بحركة ارتياد إلى لامو وبلاد الجالا حيث أنشأ هناك مركزاً تبشيرياً استقر فيه بعض الوقت وفي ذهنه أمل كبيرة،⁽²⁾

ولكنه كغيره من المبشرين، وجد إن الطبيعة كانت أقسى عليه من القبائل الأفريقية المعادية له، ففي خلال بضعة أشهر إقامته في بلاد الجالا فقد زوجته وابنه وكاد هو نفسه يموت من جراء إصابته بالحمى.⁽³⁾

كذلك قام الفرنسيون بدور كبير في النشاط التبشيري، وكما لقي المبشرون عناية سلطنة زنجبار وتشجيعهم فقد لقي نفس هذه المعاملة المستكشفون والرواد الأوربيون الذين قاموا بعملياتهم الكشفية في مجاهل القارة الأفريقية مسترشدين بما أوجده التجار العرب في مراكز ومحطات تجارية في قلب القارة الأفريقية، وقد نوه ريتشارد بيرتون (R-Burton) وهو واحد من أولئك المستكشفين، إلى أنه بفضل عناية السيد سعيد ورعايته له نجحت بعثته الاستكشافية شرق أفريقيا.⁽⁴⁾

شهد القرن التاسع عشر تفوق قوة أوربا العسكرية والصناعية، وشهد هذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين والتجار الأوربيين والذين انتهوا إلى تلك الحقيقة وهي إن هناك أمكنة في إفريقيا صالحة للاستغلال وإنها قارة جديرة بالامتلاك والسيطرة، وهكذا شاعت الظروف أن تتصادم رغبة السيد سعيد في تأسيس إمبراطورية عربية في أفريقيا مع رغبة الدول الأوربية في السيطرة على تلك القارة واستعمارها واقتسامها فيما بينهما، ويمكننا أن نذكر ما ذكره بيرس (Pearce) في تعليقه على إمبراطورية السيد سعيد: "أنه ولد متأخرًا في وقت غير ملائم لتحقيق تلك الآمال التي كان يحرص عليها".⁽⁵⁾

وفي سنة 1844 استفاد "ميزان" وكان ضابطاً من ضباط البحرية الفرنسية من تقارير كرايف وريجان في التوغل في الشرق الإفريقي، ونجح في الوصول إلى منطقة البحيرات العظمى، وقد اتخذ طريقه من جزيرة البوربون الواقعة في الجنوب غربي من المحيط الهندي، وعندما وصل إلى

زنجبار قدم له السيد سعيد الكثير من العون والمساعدة، وإن كان ميزان قد رفض أن يستصحب معه قوة عسكرية مكتفياً ببعض العرب العارفين بالطرق والمسالك الموصلة من الساحل إلى الداخل وبمساعدة أولئك وصل ميزان إلى بجمايو ومنها إلى مقاطعة الوكيميا، بيد أنه ألقى حتفه في الداخل حينما قتله بعض أفراد من قبيلة الماساي، وتحت ضغط الحكومة الفرنسية، أوفدت حكومة زنجبار قوة عسكرية لتأديب هذه القبيلة وزعيمها مازنجري.⁽¹⁾

كذلك ساعدت سلطنة زنجبار المستكشفين الانجليزيين "بيرتون"، و"سبيك" الذين قاما بعملياتهم الكشفية في سنة 1856 مما ساعد على نجاح بعثتهما الجهود التي بذلها سلاطين زنجبار في تأديب قبائل الداخل ومحاولتهم نشر الأمن، مما أدى إلى تحقيق حدة التعدي من طرف هذه القبائل على الأوربيين وبالتالي نجاح حركات الكشف والارتياح الأوربي، وقد بدأت رحلة بيرتون وسبيك حينما وصلا إلى زنجبار ثم ذهبوا في جولة بمبا وممبسة، حيث جمعا معلومات كثيرة من التجار العرب عن الجبال المغطاة بالثلوج، والبحيرة الكبيرة التي كان يسميها العرب بحيرة أو كيردي، وفيما يبدو أنها كانت التسمية المحلية التي أطلقتها عليها القبائل التي كانت تعيش على جوانبها، وهي البحيرة نفسها التي أُطلق عليها فيما بعد اسم "فيكتوريا نيانزا".⁽²⁾

وفي نهاية سنة 1857 وصل الرحالتان إلى انيامويزي وهناك استقبلهما العرب الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة بترحاب كبير، وقد أشار الرحالتان بالمساعدات القيمة التي قدمها لهما الشيخ سناي بن عامر الذي أخبرهما بوجود ثلاث بحيرات مختلفة الحجم وهي البحيرات التي أُطلق عليهما فيما بعد (نياسا، وتجانيقا، وفيكتوريا نيانزا) وبعد أن جمع بيرتون وسبيك هذه المعلومات المحلية عاد إلى زنجبار استعداداً لرحلة أخرى.

واقبل بعد سيبك وبيرتون الكثير من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين لارتياح المناطق الداخلية في أفريقيا، ويبرز من أولئك لفنجستون (Livingston) الذي كان منصفاً إلى حد كبير في اعترافه بالمساعدات الكبيرة التي قدمت له من قبل السيد ماجد بن سعيد سلطان زنجبار في سنة 1865 وكان الهدف العلمي من رحلة لفنجستون حل مشكلة تقسيم المياه والتأكد من المنابع الرئيسية للنيل في المناطق الواقعة بين نياسا وتنجانيقيا،⁽³⁾ وقد استقبله ماجد استقبالاً طيباً وزوده بكثير من خطابات التوصية إلى الرؤساء العرب التابعين له في الداخل، والجدير بالذكر أن لفنجستون تعرف في رحلاته بأحد التجار العرب ويدعى (حميد المرجبي) واستمد منه معلومات كثيرة عن الطرق والمسالك التي كان يتبعها العرب في تنقلاتهم في داخل القارة، وقد رافق لفنجستون قافلة عربية وصل معها إلى بحيرة ميروى وتمكن بمساعدة بعض الأدلاء العرب من اختراق إقليم كازيمبي، وفي بداية سنة 1869 وصل لفنجستون إلى الشاطئ الغربي لبحيرة تنجانيقا وتمكن بمساعدة بعض التجار العرب من الوصول إلى أوجيجي التي كانت محطاً للتجار العرب.⁽¹⁾

لقد كانت شخصية حميد المرجبي هي الشخصية المسيطرة على مقاطعات الكونفو وبعض المقاطعات الأخرى في أواسط أفريقيا، وجهوده التي بذلها في السيطرة على الكونفو وعن علاقته بكل من الانجليز والبلجيك.⁽²⁾

ومنذ ذلك الوقت اخذ الكتاب الألمان الذين اشتهروا بالصراحة يشيرون إلى ضرورة إيجاد مستعمرات لألمانيا والترويج لتجارتهم، ومن أهم هؤلاء الكتاب فابر (Faber) الذي نشر كتاباً سنة 1871 عالج فيه موضوع حاجة ألمانيا لمستعمرات، واقترح إنشاء مستعمرات تخدم الأهداف الاقتصادية لألمانيا في بعض الجزر مثل جزر سماوا (Samoa)، وغانا الجديدة

(NewGuinea) ومدغشقر. وفي سنة 1878 أنشئت (الجمعية الألمانية للدراسات الإفريقية - German Society For Africa Studies) في برلين، وكان لهذه الجمعية نشاط كسفي كبير، فاخذ الكثيرون من المكتشفين الألمان يعملون، بتعضيد هذه الجمعية، في المنطقة بين زنجبار وتجانيقيا، وفي سنة 1882 أنشئت (الجمعية الألمانية للاستعمار - German Colonail Society) في فرانكفورت.

والملاحظ أن نشاط الألمان كله في هذه الفترة قام على أكتاف كبار التجار الرأسماليين ورجال البعثات الدينية البروتستانتية والمكتشفين الذين يعملون أو الحساب جمعيات علمية أو بدافع من حب المغامرة، وليس على أكتاف الحكومة الألمانية،⁽³⁾ غير أن تحولاً كبيراً حدث في الاستشراق الألماني على وجه الخصوص مع ظهور الرومانسية التي ولدت الميل المفعم إلى كل ما هو غريب وعجيب (Exotisch).

إذ كان الغريب دوماً هو العجيب ألفياً، فظهرت العاصفة والجموح للتوصل إلى معنى الإبداع وفي هذا الفضاء الفكري الجديد ظهرت كتابات هيردر الفلسفية (1776-1841) عن الآداب الشرقية وإسهامات العرب والمسلمين في الفلسفة والعلوم التجريبية والثقافة الإنسانية حيث قال: "كان العرب أساتذة أوربا"، وكذلك كتب الشاعر الألماني الكبير غوته Goethe سنة 1774 قصيدته الرائعة (نشيد محمد) وكذلك (الديوان العربي - الشرقي) الذي قال فيه: "من يعرف نصفه والآخر يعترف هنا أيضاً أن الشرق والمغرب لا يمكن أن يفترقا"⁽¹⁾ وفي الوقت الذي انشغل فيه المستشرقون الألمان بمعرفة الآخر ولغاته وحضارته وآثاره الثقافية على اعتبار إن جوهر كل حضارة إنسانية وكذلك نواتها هي العقيدة واللغة.

انشغل الكتاب والشعراء والرسامون الانكليز والفرنسيون برسوم لوحات رومانسية صارخة، حيث عبر عن ذلك الشاعر الألماني الكبير هانيرش هانية

وهي الصورة التي كان يبحث عنها الرحالة والمغامرون الذين صوروا الشرق (بفجور ملون وفخامة مع وحشية بربرية برؤوس مقطوعة).⁽²⁾ هذه الصورة الصاخبة والملونة بالحس الأوربي تترجم بشكل أو بآخر واقع أوربا في القرن التاسع عشر وفي الوقت نفسه صورة الشرق وقد بات عدوا مهزوماً سلفاً مع انحسار دور تركيا واحتلال الخليج العربي سنة 1839.

إن صورة الشرق (الأسطورية) هذه تعكس في الحقيقة الوجه الآخر المقابل للعقلانية الأوربية التي طورت مبادئ عصر التنوير والتقدم الاجتماعي والتي تتسجم مع التطور العلمي - التقني وكذلك الصورة المغايرة التي رسمها بعض الأوربيين للشرق وأثارت الوعي بالذات وبالخصوصية والتفرد، التي تكونت من خلال المغايرة لأن صورة الآخر هي على الدوام صورة الذات معكوسة، والحقيقة ليس سحر الشرق وأهميته الثقافية هي التي جلبت أنظار الأوربيين إلى الشرق فحسب، بل تلاقي الصور والمعاني والمعارف مع المصالح الحيوية والإستراتيجية للغرب، الذين اندفعوا بوعي أو بدونه، مشدودين بإيديولوجية متعالية ما عدا القليل منهم، الذين قدموا معلومات وإضافات قيمة ومثيرة للاهتمام كما فعل نيبور 1760 وبوخارت 1809، وكذلك ستينزن وغيرهم.⁽³⁾

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ارتبطت نشاطات المستبشرين بأسباب اقتصادية وسياسية جديدة، حيث أخذت الرأسمالية تنمو نمواً حثيثاً نحو عصر الامبريالية مع تحول نظام المنافسة الحرة إلى نظام الاحتكار حيث اقتضى تقسيم إلى مناطق نفوذ غير مباشر، تضمن للدول الصناعية الكبرى أسواقاً ومواد أولية، واستلزم هذا التوجه السيطرة على مصادر الطاقة والمواقع الإستراتيجية مثلما استلزم التأثير عن طريق تطويعها

وتوجيهها لارتباطها بالتاريخ والدين والحضارة من أجل التحكم في بعض اتجاهاتها المستقبلية.⁽¹⁾

أفريقيا بين التنصير والتغريب:

علاقة القارة الأفريقية بالدين الإسلامي وبالنصرانية موعلة في القدم، وثابتة بالتواتر في كتب التاريخ ومع إن الديانة المسيحية سبقت الإسلام إلى إفريقيا بما لا يقل عن ستة قرون، إلا إن الإسلام استطاع في أقل من نصف قرن أن يحتوي القارة بالشكل الذي جعل المراكز المسيحية عبارة عن جزر صغيرة وسط بحار الإسلام، ولو لا تدخل العرب لأستمر تقلص المسيحية من جهة، وإحراز الإسلام الانتشار والتقدم من جهة أخرى، فمع بداية القرن الخامس عشر وجدت ظروف وإحداث أعادت ترتيب التاريخ الإفريقي، وجثمت ثقلها على الحياة الإفريقية الدينية والثقافية والحضارية، تلك هي دخول الاستعمار الغربي في حلبة الحياة الإفريقية.

ولما كانت النظم الاقتصادية تتشكل حسب المفاهيم والمعتقدات بل حسب الديانة السائدة، أقحم المغامرون الأوربيون الدين المسيحي الذي يؤمنون به إيجاباً أو سلباً في علاقتهم بأفريقيا، فلذلك انطلقوا من أوربا بعدما اقسما لأباطرتهم بأنهم يسعون لنشر المسيحية بالإضافة إلى الوصول لبلاد التوابل.⁽²⁾

ومع استهلال القرن التاسع عشر كانت هذه العلاقة ترسو على تثبيت مركزية أوربا وطفرة أفريقيا في كل مجالات الدين والاقتصاد، وانتهت إلى تقرير هذه الدول الامبريالية نزعتها الاستعمارية وسيطرتها المطلقة على أفريقيا سنة 1885 في مؤتمر برلين، والذي يهمننا أكثر في هذه التطورات هو إن الدين المسيحي الذي تعطلت محركاته منذ قرون في أثيوبيا ومصر بدأ يستعيد حيويته من جديد في ظل الوصاية المنتشرة على نهر الزمبيزي، وفي

البداية لم يكن سوى دين رمزي يبارك به أباطرة أوروبا المتسلطون منجزات سفنهم فيما وراء البحار، فكانت معظم السفن تحمل أسماء مسيحية مثل سفينة يسوع التي شاركت بها ملكة إنجلترا أليزابيث الأولى في ستينيات القرن السادس عشر، لدعم رحلات جول هربكنز للنخاسة بغرب أفريقيا، وكذلك كان أول حصن يشيده المغامرون على السواحل الأفريقية يرسل له ملك الدول التي يتبعها قسا يعطيه اسمًا من أسماء القديسين مثل حصن قاعدة سان جورج قرب ساحل العاج وقاعدة سانتا جون قرب الرأس الأخضر،⁽¹⁾ ومع إن الثورة الصناعية في أوروبا وما لابسها من تثبيط علاقة الناس بالدين وجدت الكنيسة نفسها على هامش الحياة العامة وخاصةً في ظروف الثورة الفرنسية التي هبت عدواها على معظم الدول الأوروبية، فبارت تجارة رجال الدين في سوق الشعوب الأوروبية، وكدست سلبية الكنيسة في معارضها هداية الشعوب الإفريقية، وأن على الرجل الأبيض أن يتحمل عبء تبشير هذه الشعوب وتمدنها، فهبت البعثات التنصيرية، ودبت حركات المنصرين من كل حذب وصبوب لخلق مملكة المسيح على الأرض، وقد أوجدت هذه الجهود التنصيرية في ظل الحماية الاستعمارية جواً خصباً للمسيحية في أفريقيا.⁽²⁾

ونظراً لارتباطها بمدارس وادارات المستعمر كسبت لها أتباعاً في كل هذه الدول على نسب متفاوتة، ففي ظل المناطق التي لم يصلها الإسلام من قبل لبعدها عن بؤرة التأثير بين الثقافة العربية الإفريقية سواء في المبادلات التجارية أو الهجرات والدعوة الإسلامية لأسباب في معظمها جغرافية، كان انسياب المسيحية فيها طليقاً في لباس المدنية الغربية حرّاً لم يواجه بكثير من العقبات إذا استثنينا ذلك الرفض الذي ينطلق في غالبه من اعتبارها دين الرجل الأبيض الغازي.

وأما في باقي القارة الأفريقية حيث كان للإسلام موطن قدم سابقة، فقد كان دخول المسيحية يتم عن طريق صورة الصراع بين المسلمين والمستعمرين، والحركات الجهادية التي احتوت أحداث القرن التاسع عشر علامات رفض للاستعمار وسياساته التنصيرية في أفريقيا، فظهرت حركة الشيخ عثمان بن فوديو في نيجيريا (1804-1810)، وحركة محمد أحمد عبد المهدي في السودان (1843-1885)، وحركة رابع بن عبد الله في وادي تشاد، وحركة الشيخ عمر المختار في ليبيا، والشيخ عمر الفتوي في منطقة السودان العربي (1797-1864)، ولرجحان كفة الاستعمار العسكرية بسلاحه الناري تمكن من أن يطيح بكل هذه المقاومات المناهضة له، بإعدام قادتها بعض الأحيان أو طمس حركاتهم في معظم الأحيان ومتابعة السياسة التوسعية الاقتصادية والدينية دون مبالاة، وقد بقي الإسلام على الرغم من كل ذلك دين السواد الأعظم من الإفريقيين وتمكن من الوصول إلى كثير من المناطق التي لم يصلها قبل مجيء الاستعمار.⁽³⁾

وحرصت الإرساليات التنصيرية على نقل الحضارة الغربية الأوروبية لأفريقيا مما جعل صبغة الأجنبية والتغريب ترتبط في الأذهان بالمسيحية في أفريقيا، وهو ما ترتب عليه استخدام تعبير (الأورو-مسيحية Euro-Christianity) في هذا المجال والنظر إلى الأفريقي المسيحي على أنه أرومسيحي أو مسيحي أوربي، فالعمل المسيحي لم يقتصر على نشر الديانة المسيحية والدعوة إلى الإنجيل ولكن تضمن أيضاً التعليم والحرف والفنون والرعاية الطبية، كما أن زراعة الثقافة الأوروبية أصبحت تُعدّ أساسياً من الأهداف التنصيرية.

ويلاحظ أن المخططات التنصيرية نمت حول تلك المدارس والعيادات الطبية التي نشأتها الإرساليات، ولم تعكس إلا القليل جداً من الحياة الإفريقية

في القرى المحيطة، فالأفريقيون المسيحيون المقيمون في الإرسالية كانوا في الواقع تقريباً يعيشون في أرض أجنبية ويتلقون ثقافة أجنبية وديناً أجنبياً، وقد أعطيت أسماء أجنبية للأفريقيين في تلك المحطات التنصيرية، وكانت الشكوى من الأجنبية والتغريب في الاتجاه والعبادة والحياة وطريقة المعيشة، حيث ترددت في أفريقيا على اتساعها شكوى من الارتباط بأنماط ومؤسسات غير افريقية مثلت المسيحية كعقيدة أجنبية، وفي الواقع فإن المسيحية في الأساس قد طوعت نفسها للحياة الاجتماعية والشخصية للشعوب الأوربية إلى الحد الذي أصبحت فيه مرادفة لهذه الحياة بكافة أنواعها، أي ذات صبغة أوربية، فقد حدث توليف بين المسيحية والثقافة في الغرب أدى واقعياً إلى عرقلة انتشار المسيحية خارج نطاق مَنْ يتبعون الحضارة الأوربية، فالظروف والأساليب التي نجحت في الغرب لا يمكن تطبيقها تلقائياً في أفريقيا، فإذا عملت المسيحية وصحة إنها مجرد فقرة أو مادة أخرى مستوردة من الغرب فستبقى عميقة في اتصالها بالغرب، ومن ثمَّ تصبح عميقة في مهمتها، وحيث أن الكنيسة في أفريقيا تعتبر أجنبية أساساً، فإنها من ثمَّ ترفض بشدة من جانب الأفريقيين الذين يسعون لإبراز الشخصية الأفريقية والتخلص من آثار الاستعمار التقليدي.⁽¹⁾

ومن الجدير بالملاحظة؛ أن أسلوب التغيير القائم على تحويل روح واحدة أي إدخال كل فرد على حدة للمسيحية قد اتبع في أفريقيا كما هو متبع في المسيحية العامة، ولكنه وإن تمشى مع الفردية الغربية إلا أنه أغفل طبيعة الانتماء الجماعي في أفريقيا وأعطى الانطباع بأن على الأفراد أن يتركوا قبائلهم لينتموا للقبيلة المسيحية، ومن الواضح أن المنصرين يُنصرون في إطار ثقافة المسيحية البروتستانتية الإنجليكية أو الكاثوليكية الرومانية في القرن التاسع عشر، وتبدو الصعوبة في خضوع الكنيسة لرجال الدين

الأوروبيون البيض الغرباء عن الثقافة الأفريقية وغير القادرين على الإحساس بالأفريقيين والذين يؤكدون سواء كانوا كاثوليك أو بروتستانت، إن المسيحية تنتمي لهم مما يصبغها بصبغة أوربية.⁽¹⁾

تميزت المحطات التنصيرية منذ البداية بالاستغلال الذي بدا بالاستعباد التنصيري وذلك منذ إقامتها خاصة في غرب أفريقيا في ضوء مثلث الأطنطي للتجارة الذي مثل العنصر البشري الأفريقي الذي أقتلع من جذوره في ظل تجارة الرقيق لتنتقل للعالم الحديث أهم أضلاعه بحيث أطلق عليه (المثلث الذهبي) ويتم فيها، المحطات التنصيرية تجنيد العبيد وبيعهم وتشغيلهم وتقسيم القبائل والممالك.⁽²⁾

أما أول مَنْ توغل في أفريقيا من المبشرين من جهة النيل هو (جيمس بروس الأكويسي) المتوفي سنة 1794 ووصل إلى مصر سنة 1768 وصعد إلى الأقصر وشاهد آثارها ثم إلى أسوان ومنها إلى القصير ومنها أجاز إلى جدة وركب البحر من جدة إلى مصوع ومنها صار إلى الحبشة مزوداً بتوجيه من بطريك القبط من مصر إلى الرأس ميشل، وأقام مدة في مدينة غندار وقصد منابع النيل وظن أنه وصل إلى رأس منبع النيل الأزرق، والحقيقة أنه لم يصل إلا إلى الصباوي، وهو ملتقى أنهر من النيل لا أصل منبعه، ثم عاد إلى مصر عن طريق أسوان، وقد كانت غزاة مصر هذه سنة (1798-1801) مبدأ الأسفار والرحلات صوب منابع النيل استمرت إلى 1841، وقد حذا حذو نابليون بوناپرت في سبيل الاكتشاف أمير مصر محمد علي (1805 - 1848)، ففي زمانه وصل فريدريك غالينون إلى طيبة، وواحة سيوه ثم صعد مجرى النيل إلى إن وجه قرب العاصمة القديمة مروية (1818-1820).

وفي سنة 1847 بدأت بعثة تتحدث الألمانية تسمى (جمعية بريمن - Bremn Society Ewe Country) تعمل في الشرق من الفولتا.⁽³⁾ أما الألماني

كرايف وايزيمان وأرهاوت وريجان قد توغلا في أصقاع البحيرات الكبرى ووصلا إلى قنن الثلج في بلاد كينية والكيلمان نجارو في 11 مايو 1848، ومن هناك انفتحت الطريق التي أنطلق منها صموئيل باكر (1864-1873) والكولونيل غوردون، وأمين باشا ولنيانت بك وغيرهم، وكان لهؤلاء السياح أثر بعيد الصيت في تهذيب الزنوج، وأجتهد صموئيل باكر وأصحابه بإلغاء الرق، مستظهراً ذلك بأمر الخديوي، وهلك نوردون في الخرطوم بيد المهدي بعد أن أقام بضع سنين عشرة يرقى من أخلاق السودانيين ولم يكن شيء يشابه همة هؤلاء السياح في شرق أفريقية سوى همة أعضاء تلك الجمعية الأفريقية التي تأسست سنة 1788.⁽¹⁾

فهؤلاء السياح وأمثالهم الذين بقصص أسفارهم هاجوا شوق مبشري الكنيسة الانليكانية والميثودية والانكليزية، وكان الانكليانيون منذ سنة 1804 أسسوا مركزاً لهم في سيراليون، واقتدى بهم الميثوديون بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ وفي سنة 1861 كانت لنصارى الزنج في تلك الأقطار كنيسة مستقلة بذاتها، وأما طريق الكاب فهي الطريق الثالث الذي دخل منها المبشرون إلى باطن أفريقية، والمبشرون هنا لم يسبقهم السياح بل كانوا هم السابقين بدأ بذلك جور جشميد سنة 1737 ويانس سنة 1800.⁽²⁾

إن الذين بدؤوا التبشير لم يكونوا الانجليز مثل الألمان والدانماركيين، وقد كان أول من اقتحم هذه الأقطار من الألمان هم (الموافيين) حاولوا الدخول في أربع أبواب معاً (الجزائر، القاهرة، ساحل غينية، الكاب) ففشلوا في الثلاث أبواب، الأولى، بسبب تمسك أهل الإسلام بدينهم وبما فتكت بهم الحمى في غينيا، فقد كانوا يرسلون الفوج فتحصدهم الحمى تباعاً حتى عدلوا عن رسالة غينيا، ولم يستأنف العمل هناك إلا بعد سنتين سنة بواسطة جمعية (بال) السويسرية الألمانية،⁽³⁾ أما في بلاد الكاب فقد كانت لهم اليد الطولى في

تهذيب الهوتنتون والكافر وتخفيف ألام المجذوبين لمتوطن المبشر الألماني (جورج شهيد) في بافيانس كلون، على بعد (50 ميل) شرقي الكاب، كان الفلاحون الهولنديون (البوير) يحتقرون الهوتنتون إلى حد أنه قرأ أمام عدة كنائس الإعلان الآتي: "ممنوع دخول الهوتنتون والكلاب إلى هنا"، وفي سنة 1892 أسس المورافيون في تلك البلاد مركزاً أطلقوا عليه اسم (وادي الرحمة) وفي سنة 1800 صار هذا المركز قرية ذات 1200 نسمة فيها صناعات وأشغال مفيدة، واليوم من أزهر بلاد الكاب، وفيها ثلاثة آلاف هوتنتوني مسيحي.

ثم أوغل المورانيون في بلاد الكافر، لكنهم ثبتوا موقفهم وصبروا على الشدائد من سنة 1828 حتى سنة 1885، إذا وقفوا لتأسيس مركز في شمال بحيرة بناسة في الجنوب الغربي من المستعمرة الألمانية الشرقية، وفي سنة 1886 أنشأت جمعية برلين الأفريقية وهي إحدى جمعيات برلين الإنجيلية أسسها ديستلكاب للتبشير في شرقي افريقية فأرسلت دعائها إلى الجنوب الغربي من مملكة الأورانج وإلى غرب غريكا وإلى بلاد الباسوت من الترنسفال وإلى شمال بحيرة بناسة فيسكنها هذه الأيام (27) مركز دعاية و(21) ألف منتصر وأزهر مؤسساتها مدينة بوتشابيكو إلى عدد سكانها (4) آلاف كلهم نصارى وفيها صناعات ومهن،⁽¹⁾ ثم جمعية الكنائس الإنجيلية في بلاد الراين، أرسلت دعائها للتبشير في بلاد الهوتنتون، ثم وصلت بلاد الناما والهريرو، والذين هم أشد القبائل عتوا والأوفامبو الذين بين نهر الأورانج والكونين، ثم إن احد البيوتات التجارية الألمانية من برام أسس محلاً تجارياً في (أو) أو (تجهيفة)، فامتد هناك الألمان وجعلوا لأنفسهم مستعمرة الكاب (25) مركزاً للدعاية ونحو (16) ألف منتصر، وفي مستعمرة الجنوب الغربي المذكور (24) مركزاً ونحو (12500) منتصر ثم جمعية شمالي ألمانيا

التي مركزها برام وجمعية هرمانسبورغ التي مركزها هانوفر،⁽²⁾ ولما استولى الألمان على الكامبيرون لم يرتاحوا إلى وجود المبشرين الانجليز فيها فتخلّى هؤلاء عن مؤسساتهم لجمعية بال الألمانية سنة 1887 ولبت النصارى الوطنيون مستقلين بكنائسهم وتحولت الجمعية الممدانية من الكامبيرون إلى الكونغو، حيث كان البرتغاليون قد ادخلوا كثيرين من الكاثوليكية فاجتهد الانجليز الممدانيون في استمالة قسم من أهالي الكونغو.

امتازت الرسائل الألمانية بالتوفيق في (اللغات الأفريقية) وبالثبات وحفظ النظام ولكن الرسائل الانجليزية والايكوسية امتازت بالجرأة وبالصدق في تحرير الزوج ومنع المظالم الواقعة عليهم من المستعمرات، على أن كلا الفريقين أدخل في أفريقيا الأعمال اليدوية ولزراعة مقرونة بالتعليم الديني والتهديب.⁽³⁾

خاتمة:

لقد كانت أفريقيا مسرح لعمليات الغربيون حيث وضعوا شعوب القارة السوداء عبيد في ثياب التهديب الأخلاقي وغيره، وقد استغلوا المسيحية في وضع مخطط استعماري لتلك القارة، حيث كانت أهداف المبشرين المعلنة نشر المسيحية ولم تكن للسيطرة الاستعمارية السياسية، وعندما شعر بعض من الإفريقيين بأن المبشرين ما هم إلا سن الرمح للاستعمار، كرهوهم، واطهروا هذه الكراهية واعتبروهم مثل أولئك البيض الذين لم يكن دوافعهم إلا لسيطرة واستغلال إمكانات البلاد، وإزالة سلطة الزعماء وأنظمتهم السياسية.⁽¹⁾

المراجع العربية:

1. ابراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار العافي، بيروت 1996.
2. إدوارد سيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981.
3. أرموتة هلال، الغرب في مرآة الشرق - فكر وفن، ميونخ 1984، العدد (40).
4. أفغراف، سميروف، تاريخ الكنيسة المسيحية، ترجمة ألكسندروس (مطران حمص)، مترجم عن الطبعة الروسية التاسعة 1911، حمص 1964، مطابع الفجر.
5. أمباي لوبشير، قضايا اللغة والدين في الأدب الأفريقي، مركز دراسات المستقبل الأفريقي، القاهرة، 1996.
6. جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربي، الكويت، 1986.
7. حورية توفيق مجاهد، الإسلام في أفريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2002.
8. دوفينيون، بطرس، حياة مجيدة في خدمة الكنيسة، غبطة البطريرك يوسف فاليركا، ترجمة ابراهيم بطارسة، القدس، 1972، مطبعة البطريركية اللاتينية.
9. رودى بايت، الدراسات الاسلامية بالعربية في الجامعات الالمانية، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، 1967.
10. زاهر رياض، استعمار أفريقية، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة.
11. سالي هاني، أفريقيا بين التنصير والتغريب، مكتبة الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 2006.
12. شوملي، قسطندي، أخوة المدارس المسيحية - تاريخ المؤسسة للإرسالية في الشرق، بيت لحم، 1974، جامعة بيت لحم.
13. علي احمد فليل، الدولة لعثمانية والمسلمون في جنوب أفريقيا، دراسة وثائقية للفترة من 1856-1878، أوراق أفريقية، العدد 3، مركز دراسات المستقبل الأفريقي، القاهرة، 2002.

14. علي مزروعى، قضايا فكرية، أفريقيا والإسلام والغرب، ترجمة صبحي قنصوة وآخرين، سلسلة دراسات أفريقية، ج4، مركز دراسات المستقبل الأفريقي، القاهرة، 1998.
15. فريدمان بوتتر، امبريالية وجدانية أم جسر للاتصال الحضاري، الدراسات الشرقية في ألمانيا الاتحادية - البنية والوظيفة - فكر وفن، العدد 40، ميونخ، 1984.
16. فيج، جي، دي، تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة يوسف نصر، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1982.
17. محمود طه أبو العلا، المسلمون في أفريقية المدارية، سلسلة المسلمون، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1999.
18. مختصر تاريخ طائفة الملكيين الكاثوليكين، بيروت، 1884.
19. نجيب العفيفي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، 1981.
20. هشام جعيط، أوربا والإسلام، ترجمة طلال عتريسي، دار الحقيقة، بيروت، 1980.

المراجع الأجنبية:

- 1- Burton, R. Kake Relion of Central Africa, London, 1800.
- 2- Burton Zanzibar, Gity, Island and Coast Vol. I .
- 3- Coupland East Africa and its inraders.
- 4- Custer Pfonn Muller: Handbuch der Island Later atur Berlin 1933.
- 5- Groves, C. P. The Planting of Christianity in Africa Vol. 11(London).
- 6- J. Kraptr Traeles Researches and Missionary Labours during an eighteen years residencein Eastern Africa, London, 1868.
- 7- Mona Macmillan, Introducing East Africa.
- 8- Pearce Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa.
- 9- Slade Ruth King Leopods Congo, London, 1962.
- 10- Taylor, A. i. P. Germany's First Bid for Colonies 1889, 1880 (London 1938).
- 11- The Last Journal of David Ivingston Central Africa from 1865 to his death. 2Vols. London 1880.
- 12- Wissmann, Stuttgart, Ethnologies Chichte Dokuments Zur, Arabian 1965.